المقاصد الشرعية للعمل الخيري
في ضوء الكتاب والسنة

أ. وليد محمد عبد الرحمن محمد
مدرس الفقه والأصول بكلية الشريعة والقانون
جامعة السلطان عبد الحليم معظم شاه الإسلامية العالمية
ولاية قدح (دار الأمان) ماليزيا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، أمّا بعد؛

فمن نعم الله علينا أن هدانا للإيمان، وجعلنا من أتباع هذا الدين العظيم، الذي تميز بخصائص الكمال وتفرد بصفات الشمول. وكان لتشريعاته مقاصد وغايات، تنطلق خلالها الأحكام وفق شريعة الله المبنية على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن هذه التشريعات الفقهية موضوع العمل الخيري، هذا الموضوع الذي يعنى بعمل الخير والحث عليه مما يؤدي إلى صلاح الفرد وبناء المجتمعات، لذلك يهتم الفقهاء والعلماء بإبراز المقاصد الشرعية للعمل الخيري. لأن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الخلق وسن لهم الشرائع، إنما أراد المصلحة لهم، ودفع المفسدة عنهم. وتضمنت شرائعه سبحانه دعوة إلى تحقيق المصالح العاجلة في الدنيا، والسعادة الآجلة في الآخرة. فما من حُكم إلا وفيه مصلحة، وما أمر الله بشيء إلا فيه مصلحة، وما أباح شيئا إلا فيه مصلحة، لأن الشريعة كلها مصالح، فإذا قرأت قول الله: "يا أيها الذين آمنوا" فلا تجد إلا خيراً يحثك عليه، أو شراً يزجرك عنه.

وإنفاق المال في العمل الخيري له مقاصده وأهدافه، وهذا يتبين من خلال استقراء صور العمل الخيري التي تمت على مدار العصور الإسلامية، فيقف المسلم على مقاصد العمل الخيري وأهدافه. فللعمل الخيري مقاصد متعددة، وهو كأحد فروع الشريعة يعتبر أداة للبر والإحسان إلى جانب الزكاة وغيرها من أدوات التكافل بين المسلمين. ومن أجل المشاركة في هذا الموضوع كان هذا البحث الذي جعلته بعنوان: المقاصد الشرعية للعمل الخيري.

ويهدف هذا البحث إلى تناول موضوع العمل الخيري وعلاقته بالمقاصد الشرعية، ودوره في حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات، وسوف يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي، وهو المنهج الذي يعتمد على جمع الحقائق والمعلومات، من كتب الفقه الإسلامي القديم والحديث، ثم مقارنتها وتحليلها وتفسيرها، بهدف الخروج بنتائج علمية صحيحة وخالية من السطحية، وجعلت خطته حسب التفصيل التالي:

مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، فأما المقدمة ففيها أهمية الموضوع وسبب اختياره.

والتمهيد وجعلته بعنوان: من خصائص العمل الخيري في الإسلام

- المبحث الأول: عمل الخير مقصد من مقاصد الشريعة.
- المبحث الثاني: المقاصد الكلية للعمل الخيري.
- المبحث الثالث: المقاصد الخاصة للعمل الخيري.
- خاتمة وفيها أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

التمهيد: من خصائص العمل الخيري في الإسلام

العمل الخيري هو النفع المادي أو المعنوي الذي يقدمه الإنسان لغيره دون مقابل، مثل أعمال البر وصنائع المعروف، ولا يقتصر هذا العمل على المساعدات المادية، وإنما يتعدى ذلك إلى البرامج الثقافية والدعوية لإقامة المصالح المعتبرة ابتغاء الأجر في الآخرة، وتوجد مجموعةٌ من الخصائص التي يَتميز بها العمل الخيري، وهي:

١- أنه لا يهدف إلى تحقيقِ أي ربحٍ مالي؛ فهو عملٌ مرتبطٌ بالخير والإحسان إلى الآخرين.

٢- يُعزّز من دور المجتمع في تقديم المساعدات للمحتاجين.

٣- يُساهم في نشر ثقافة التعاون والتكافل بين الأفراد في المجتمع.

٤- يَزيد من إحساس الفرد بالمسؤولية تجاه أمته.

٥- يُعدّ من الوسائل المُهمة في بناء المجتمعات.

٦- أعماله اختيارية تطوعية غير واجبة شرعا، توكل إلى رغبة الإنسان وقوة إيمانه.

٧- أعماله غير نفعية لا يقصد صاحبها تحصيل نفع مادي أو معنوي بل هي لوجه الله وطلب مرضاته.

٨- أعماله غير إلزامية تخضع فقط لإرادة المتبرع وشروطه في تبرعه. يجب التقيد بشروطه ما دامت موافقة للشرع.

المبحث الأول: عمل الخير مقصد من مقاصد الشريعة

العمل الخيري هو النفع المادي أو المعنوي الذي يقدمه الإنسان لغيره دون أن يأخذ عليه مقابلا، ولكن هو يحقق له هدفا خاصا أكبر من المقابل المادي، مثل أعمال البر وصنائع المعروف، ولا يقتصر هذا العمل على تقديم المساعدات المادية وإنما يتعدى ذلك إلى تقديم البرامج الثقافية والدعوية لإقامة المصالح المعتبرة شرعا ابتغاء الأجر والثواب في الآخرة، فالعمل الخير يعد مقصدا من مقاصد الشريعة الإسلامية، وإن لم يذكره القدامى في المقاصد أو الضروريات الأصلية التي حصروها في خمس أو ست؛ وهي: حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ النسل وحفظ العقل وحفظ المال وزاد بعضهم حفظ العرض. ولم يذكر علماؤنا القدامى فعل الخير والدعوة إليه ضمن هذه المقاصد الأساسية التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها؛ لأنهم جعلوها ضمن الضرورة الأولى، وهي حفظ الدين، وفيه تدخل العقائد التي هي أساس الدين، ويدخل كذلك حب الخير وفعله والحث عليه ..... والعمل الخيري مقصد من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يهدف إلى منفعة الإنسان وتقديم

الخير الذي يتشوق إليه، يقول ابن سينا: "إن الخير هو ما يتشوقه كل شيء ويتم به وجوده"[١].

ومفهوم الخير معروف في أغلب الحضارات، مألوف في تجارب الشعوب القديم منها والحديث، ويكاد يكون الخير قاسما مشتركا بين جميع الناس على مر العصور، كما أن الشر قاسم آخر مشترك بينهم، والسعيد منهم من هداه الله لفعل الخيرات والتسابق فيها. وللخير وعملِه مقاصدُ تختلف في تفاصيلها بحسب كل حضارة، ولكنها تتفق في كلياتها بين جميع الحضارات حيث يكون الإنسان هو مَنْ تُنتظر منه المبادرة بعمل الخير، وهو أول مَنْ يستفيد من عمل الخير معنويا أو ماديا.

وكلمة الخير في اللغة تعني كل ما فيه نفع وصلاح، أو ما كان أداة لتحقيق منفعة أو جلب مصلحة [٢]. وقيل: إن الخير ما يرغب فيه كل البشر كالعقل والعدل والنفع والفضل، وضده الشر [٣]، وقيل هو: العمل الذي يعم نفعه.

أين يقع العمل الخيري من مقاصد الشريعة؟

إن الخير مقصد عام وثابت من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، وله مقاصد أخرى تهدف كلها لمنفعة الإنسان في كل زمان ومكان. ولن ندخل هنا في مضمون علم مقاصد الشريعة ولا في تفاصيله، يهمنا فقط أن نشير إلى أن الموضوع الرئيس لهذا العلم هو البحث عن غايات الإسلام الكبرى من التشريع الذي جاء به في العبادات والمعاملات، مما هو مظهر عظمة الشريعة الإسلامية بين بقية الشرائع والقوانين. إذن فالمصلحة هي النواة الصلبة لمقاصد الشريعة، وأن هدف هذه المقاصد هو جلب الصلاح ودرء الفساد، وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان[٤]، ولابن القيم كلمة جامعة في بيان أن مبنى الشريعة وأساسها هو مصلحة العباد في المعاش والمعاد يقول: إن الشريعة عدل كلها، ورحمة كلها، وحكمة كلها، ومصالح كلها، وأي مسألة خرجت من العدل إلى الجَوْر، ومن الرحمة إلى ضدها، ومن الحكمة إلى العبث، ومن المصلحة إلى المفسدة، فليست من الشريعة في شيء، وإن أدخلت فيها بالتأويل.

وقد حدد علماء المقصد الشرعية عدة طرق للتعرف على المقاصد العامة للشريعة، منها أدلة القرآن الواضحةُ الدلالة، والسنة النبوية المتواترة، واستقراء الأحكام المعروفة عللها،

---

(١) كتاب النجاة، لأبي علي بن سينا، ص/٢٢٩.

(٢) قاموس المصطلحات الاقتصادية، لمحمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ص/٢٠٥-٢٠٦.

(٣) المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، تحقيق محمد سيد الكيلاني، مادة خير.

(٤) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر ابن عاشور، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٨م، ط/١، ص / ٦٥.

وكذلك استقراء أدلة الأحكام التي اشتركت في علة واحدة بحيث يحصل لنا اليقين بأن تلك العلة هي مقصد مراد للشارع، ومثال ذلك أن كثرة الأمر بعتق الرقاب دلنا على أن من مقاصد الشريعة حصول الحرية[١].

وقد ذهب الإمام الشاطبي إلى أن مقصد الشارع الحكيم يُعرف من جهات: إحداها مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي.. والثانية اعتبار علل الأمر والنهي ولماذا أمر بهذا الفعل، ولماذا نهى عن هذا الآخر؟ والثالثة أن للشارع في شرع الأحكام العادية والعبادية مقاصدَ أصيلة ومقاصد تابعة... فمنها منصوص عليه ومنها مشار إليه ومنها ما استقرئ من النصوص. على أن كل ما لم ينص عليه مما شأنه ذلك هو مقصود للشارع أيضا. والجهة الرابعة مما يعرف به قصد الشارع السكوت عن شرع التسبب أو عن شرعية العمل مع قيام المعنى المقتضى له....[٢].

وإذا سلكنا مسالك استنباط المقاصد العامة للشريعة التي قررها المقاصديون وبحثنا عن موقع العمل الخيري من هذه المقاصد، فسنجد أن العمل الخيري مقصد عام وثابت من مقاصدها، وأن له في ذاته مقاصد أخرى؛ بعضها يهدف إلى خدمة مقاصدَ عامةٍ من مقاصد الشريعة، وبعضها يهدف إلى خدمة مقاصد فرعية ومتغيرة بتغير ظروف الزمان والمكان وأحوال المجتمعات.

فالعمل الخيري مقصد عام من مقاصد الشريعة، وذلك بدلالة كثرة الأمر به والحض عليه ومدح فاعليه، والتحذيرِ من مناوئيه في كثير من آيات الكتاب العزيز، وأحاديث النبي الكريم ﷺ.

فمن الآيات القرآنية ما يحض على فعل الخير مثل قوله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج:٧٧)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ (آل عمران:١١٥).

ومن الآيات ما يأمر بالدعوة للخير مثل قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [٣]، وقول الرسول ﷺ: "من دل على خير فله مثل أجر فاعله" (رواه مسلم).

ومن الآيات ما يحث على المسارعة في عمل الخير قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [٤]. ومن الآيات ما يثني على الذين يسارعون في عمل الخيرات مثل قوله

---

(١) المرجع السابق، ص/١٥-١٨.

(٢) الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحق الشاطبي، وعليه شرح الشيخ عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ٢/ ٣٩٣-٤٠٩.

(٣) آل عمران:١٠٤.

(٤) المائدة:٤٨.

تعالى في وصف بعض مؤمني أهل الكتاب: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [١]، وفي وصف أهل الخشية من ربهم: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾[٢].

وللحض على المنافسة والسبق في الأعمال المفيدة قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [٣] وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [٤]. وقال رسول الله ﷺ : " سبق درهم مائة ألف درهم "، قالوا: وكيف؟ قال: " كان لرجل درهمان، تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها " (رواه النسائي). وفي سياق الحديث عن الإنفاق قال تعالى: ﴿ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [٥]. وهناك مواضع أخرى كثيرة...، منها نعلم من الأمر بعمل الخير فيها، والحض عليه، والثناء على من يقومون به، أن العمل الخيري مقصد عام من مقاصد الشريعة.

ونحن نلاحظ أن عمل الخير يطرح في النفس الارتياح والطمأنينة، ويطرح في المجتمع الاستقرار والسكينة، ويجعله مهيأ لعيشة هنيئة، وحياة أفضل تسمح للناس بالإبداع والابتكار، والقيام بالمبادرات التي تستهدف تحسين الحياة والتغلب على مشكلاتها، والإسهام في سعادة المجتمع.

وإذا كان عمل الخير معناه العطاء بلا مقابل فإن هذا يتعارض مع منطق السوق والكفاءة الاقتصادية في الرؤية الرأسمالية الحديثة عموما. ولكن التجربة الإسلامية تؤكد أن المنفعة ليست فقط نتيجة مبادلات مادية بين الأفراد والجماعات، وإنما يمكن أن تكون هذه المنفعة نتيجة فعل خيري بدون مقابل مادي. وهذه الممارسة تتطلب بطبيعة الحال الإيمان العميق بعمل الخير، كما تتطلب إدراك المضمون الواسع لمفهوم العمل الخيري الذي يبدأ بأقل الأشياء " ولو بشِقّ تمرة " كما في حديث الرسول ﷺ (رواه البخاري)، ويصل إلى كل ما يملكه الفرد من أموال.

المبحث الثاني: المقاصد الكلية للعمل الخيري

المقاصد العامة: وهي المقاصد التي تلاحظ في جميع أو أغلب أبواب الشريعة، بحيث لا تختص ملاحظاتها في فرع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة

---

(١) آل عمران: ١١٤

(٢) المؤمنون: ٦١.

(٣) البقرة:١٤٨.

(٤) فاطر:٣٢

(٥) البقرة:٢١٥

وغاياتها الكبيرة. والعمل الخيري سواء أكان تبرعا بالمال أو بالمنفعة له مقاصد شرعية معتبرة على مستوى الضروريات أو الحاجيات أو التحسينيات؛ فهو قد يكون واجبا إذا كان لتحقيق مقصد واجب، ويكون حاجيا إذا كان لتحقيق مقصد حاجي، وهكذا باقي الأحكام التكليفية، لذلك فإن العمل الخيري ليس له حكم تكليفي واحد، وتتضح أهمية الانتفاع بالعمل الخيري من خلال النظر في ما يحققه من مقاصد وغايات تسهم في تحقيق النفع للفرد والتقدم للمجتمع.

تعريف المقاصد:

المقاصد في اللغة من قصد، جمع مقصد، تأتي بمعنى العزم، وتأتي بمعنى الاعتدال والتوسط، ففي الحديث: " القصد القصد تبلغوا " [١]، وتأتي بمعنى العدل والإنصاف [٢]. وأصل الكلمة عند العرب تعني الاعتزام والتوجه نحو الشيء [٣]. وفي الاصطلاح [٤] تعددت تعريفات المقاصد ولكنها جاءت متقاربة، منها: أنها هي الحكم والغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد [٥]. ومن الممكن أن نستخلص منها تعريفاً جامعا فنقول: إن المقاصد هي: الغايات والأهداف التي وضعها الشارع الحكيم لتحقيق مصالح العباد.

وقد ورد في القرآن الكريم نصوص عامة تشير إلى اعتبار المقاصد في أفعال المكلفين، فكثير من الآيات اختتمت بقوله تعالى: ﴿ لعلكم تتقون ﴾، و ﴿لعلكم تعقلون﴾ و ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٧] [٥٦: الذاريات].

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقائق باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦٤٦٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ط عيسى البابي الحلبي ٤/ ٦٨.

(٣) تاج العروس، لحمد مرتضى الزبيدي، ط بنغازي، ليبيا، ٣٥/٩.

(٤) حجة الله البالغة، للدهلوي، ط بيروت، ودار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ط٣/، ١/ ٢١. ومقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر ابن عاشور، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٨م، ط/١، والشاطبي ومقاصد الشريعة، حمادي العبيدي، دمشق، دار قتيبة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ط١، /١١٩. ومقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، محمد سعد اليوبي، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ط/١، /٣٥.، وقواعد المقاصد عند الشاطبي عرضاً ودراسة وتحليلاً، عبد الرحمن الكيلاني، دمشق، دار الفكر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ط/١، / ٤٦.، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، ويوسف العالم الرياض، الدار الإسلامية للكتاب الإسلامي، ١٩٩٣م، ط٢، /٧٩.

(٥) نظرية المقاصد عند الشاطبي، لأحمد الريسوني ط. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص /٧.

(٦) الملك: ٢.

(٧) العنكبوت:٤٥.

وفي القرآن الكريم نصوص تشير إلى مقصد الشرع من حكم معين، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾ [١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [٢]، فهذه تشير إلى المقصد من شرعية الصلاة وفرضيتها.

وعن الحج جاءت الآيات تبين المقاصد الشرعية للحج في قوله تعالى: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ [٣]، وفي قوله تعالى:﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[٤].

وعن المال يبين القرآن الكريم وجوب إنفاقه ودفع الحقوق الواجبة فيه، حتى لا يبقى هذا المال في يد فئة قليلة من الناس ويحرم منه غيرهم، في قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ﴾ [٥].

ومن السنة مثل قوله ﷺ: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " [٦]. هذه النصوص تشير إلى المقاصد التشريعية من الأحكام.

ولم يغفل المسلمون مراعاة العرف الصحيح والعادة الحسنة عند تقرير الأحكام، فلم يقفوا عند حدود الألفاظ والصيغ، بل كان مقصدهم تحقيق المصلحة ودرء المفسدة، وكثيراً ما كان يعدل بعض الفقهاء عن رأي أدى إليه اجتهاده، إلى رأي آخر حين ينتقل من مكان إلى آخر، أو يرتحل من بلد إلى آخر دون أن يتناقض اجتهاده مع نص من الكتاب والسنة، أو يتعارض مع إجماع المسلمين.

ومن هنا يتبين أن الشريعة الإسلامية قامت لرعاية المصالح في الأحكام العامة والخاصة، ومن يقصر الحكم على ظاهر النص، يعدّ ذلك قصوراً عن فهم الشريعة ودلالات الألفاظ. ويشير إلى هذا قول ابن القيم: " والتعويل في الحكم على قصد المتكلم، والألفاظ لم تقصد لنفسها، وإنما هي مقصودة للمعاني، والتوصل بها إلى معرفة مراد المتكلم، ومراده يظهر من عموم

---

(١) التوبة:١٠٣.

(٢) طه: ١٤.

(٣) الحج: ٢٨.

(٤) الحج٢٩

(٥) الحشر: ٧.

(٦) البخاري، صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، وباب من لم يستطع الباءة فليصم، ص٩٣٤، حديث رقم (٥٠٦٥)، و(٥٠٦٦)، ورواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ج٢، ص ١٠١٨، حديث رقم (١٤٠٠).

لفظه تارة، ومن عموم المعنى الذي قصده تارة، وقد يكون فهمه من المعنى أقوى، وقد يكون اللفظ أقوى، وقد يتقاربان " [١]. ويؤكد ذلك الشاطبي بقوله: " كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب ليس هو في العبارة بل التفقه أو التفكر في المعبّر عنه، والمراد به، هذا لا يرتاب فيه عاقل " [٢].

وكما هو ملاحظ اليوم، فإن أي قانون تصدره الحكومات، فإنه يرافقه مذكرات تفسيرية وإيضاحية تبين المقصد من تشريع القانون بوجه عام، وتبين المقصد الخاص من كل مادة من مواده، وهي تشكّل عوناً لرجال القضاء على فهم القانون وتطبيقه بنصوصه وروحه ومعقوله [٣].

مجالات العمل الخيري وعلاقتها بالمقاصد الشرعية

تقسم المقاصد الشرعية إلى ضروريات وحاجيات وتحسينيات وتعريف رتب المقاصد كما ورد عند الشاطبي على النحو الآتي [٤]:

الضروريات: وهي المصلحة التي لا بدّ منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين. فالضروريات هي التي تكون الأمة في ضرورة إلى تحصيلها بحيث لا يستقيم النظام باختلالها، ويؤول حال الأمة بانحرافها إلى فساد وتلاش [٥]، فلا بدّ منها لتحقيق مصالح الناس، فوجودها يعني استقرار الحياة ودوامها، وفقدانها يعني توقف الحياة.

المصالح الضرورية للناس هي: الدين والنفس والعقل والنسل أو العرض أو النسب والمال. ولقد جاءت الشريعة لحفظ هذه المصالح، وذلك بتشريع الأحكام التي تحفظها. ومقصود الشرع من الخلق هو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم... وهذه الأصول الخمسة حفظها واقع في رتبة الضروريات، فهو أقوى المراتب في المصالح ".

---

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق طه عبد الرؤوف، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣م.ج/١، ص/٢١٧.

(٢) الموافقات، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق عبد الله دراز، بيروت، دار المعرفة، ٣ /٤١٠.

(٣) علم أصول الفقه، انظر عبد الوهاب خلاف، الكويت، دار القلم، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ط/١٢، ص/١٩٨. علم أصول الفقه، محمد زكريا البرديسي، القاهرة، دار الثقافة للنشر، ١٩٨٣م، ١٩٨٣م، ص/ ٤٤٦.

(٤) الموافقات، ٢/ ٨.

(٥) مقاصد الشريعة، ص/ ٢١٩.

والحاجيات: معناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراع دخل على المكلفين على الجملة الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة [١].فهي المصالح التي يحتاج إليها الناس للتيسير عليهم ورفع الحرج عنهم.

التحسينيات: معناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق. [٢] فهي: ما لا يرجع إلى ضرورة ولا إلى حاجة، ولكن يقع موقع التحسين والتزيين والتيسير للمزايا، ورعاية أحسن المناهج في العادات والمعاملات". والضروريات هي أقوى المراتب وأعلاها [٣].

وهذه المراتب مترابطة فهي تحفظ المصالح العليا وتحقق المقاصد الشرعية في جميع نواحي الحياة، وجاءت الأحكام الشرعية لحفظها بدءاً بحفظ الضروريات، ويراد به إيجادها وصيانتها في حدها الأدنى الذي لا تقوم ولا تدوم إلا به، أما التوسع بما يزيد على الحد الأدنى الضروري، فذلك يدخل فيما سماه العلماء بالحاجيات والتحسينيات[٤].

وتحقق من خلال العمل الخيري للمجتمع الإسلامي المقاصد الشرعية الكلية الثلاثة في مختلف الأزمنة والأمكنة على مستوى العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، ولجميع طبقات أفراد المجتمع، وهذا الشمول في المقاصد قد لا يتوافر في قربة أخرى [٥].

ويجب أولاً تحقيق الضروريات في حدها الأدنى لتستقيم للناس أمورهم الدينية والدنيوية، فإذا تحققت الضروريات انتقلت أولويّة العمل إلى تحقيق الحاجيات، ففقد الناس للحاجيات ينشأ عنه ضيق وحرج ونكد، ومن شأن الاستمرار في فقدها واختلالها إلحاق الضرر بالضروريات نفسها، ومن هنا كان حفظ الضروريات مقتضياً حفظ الحاجيات، ثم يأتي بعد تحقيق الضروريات والحاجيات كل مصلحة وكل منفعة لا تصل إلى حد الضرورة أو الحاجة، ولكن فيها نوع إفادة للناس في أي جانب من جوانب حياتهم الدينية والدنيوية، وتحصيلها يضفي على الحياة كمالاً وجمالاً وسمواً.

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ١١/٢.

(٢) الشاطبي، الموافقات، ١١/٢.

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية، زياد احميدان، بيروت، مؤسسة الرسالة ناشرون، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص/٨١-٨٢.

(٤) مدخل إلى مقاصد الشريعة ص/ ٦٦.

(٥) مفهوم الوقف ومقاصده، د. عبد الوهاب أبو سليمان، ضمن بحوث ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية، الرياض ١٤٢١هـ / ٦٧٩

دور العمل الخيري في حفظ الضروريات الخمس:

إن مقصد الشريعة من التشريعات حفظ نظام العالم، وضبط تصرف الناس منه على وجه يعصم من التفاسد والتهالك [١]، حيث قال ابن عاشور في مقصد الشريعة: " إنما هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان " [٢]، والصلاح لا يتحقق إلا بجلب المصالح ودرء المفاسد لهذا الإنسان، وحيث إن العمل الخيري هو أحد المسائل التي تهدف إلى تحقيق الصلاح للإنسان، وهو بهذا المعنى يدخل ضمن المصالح التي تدخل في مقاصد الشريعة.

وقد مثّل الغزالي، ثم الشاطبي [٣]، لهذه الضروريات في خمسة أمور هي: الدين والنفس والعقل والنسل والمال. قال الغزالي: " ومقصد الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم "[٤].

أ - دور العمل الخيري في حفظ الدين:

ويكون حفظ الضروريات بأمرين: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها من جانب الوجود، وما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك من جانب العدم [٥]. وحفظ الدين على ثلاثة مراتب: الضروري منه مثل بناء المساجد، والحاجي منه مثل إصلاح المساجد وتعيين المؤذّنين وغيرهم، وأما التحسيني مثل تزيين المساجد وفرشها وطلاء جدرانها [٦]. يسهم العمل الخيري في حفظ الدين بإقامته وإرساء قواعده بما يلي:

١- بناء المساجد في المناطق التي لا يوجد فيها مسجد، ومدها بالأئمة ومن يقوم على خدمتها، وتعدّ المساجد من أهم الأشياء لحفظ الدين، وقد ساهم العمل الخيري من خلال بناء المساجد وإنشائها في حفظ الدين.

٢- إقامة المراكز الدعوية وتأهيل الدعاة لمواجهة الفكر المنحرف.

٣- إقامة مراكز تحفيظ القرآن ورعاية القائمين عليها.

---

(١) مقاصد الشريعة، ص/ ٢١٨.

(٢) انظر المرجع السابق، ص/٦٣.

(٣) الموافقات، ١٠/٢.

(٤) الموافقات، ٤١٧/١.

(٥) الموافقات ٧/١.

(٦) الوقف الإسلامي تطوره وإدارته وتنميته، منذر قحف، بيروت، دار الفكر المعاصر، ودمشق، دار الفكر، ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م، ط/١، ص/ ٣٩.

٤- طبع الكتب والنشرات وإنشاء القنوات التليفزيونية والمحطات الإذاعية والفضائية بهدف نشر الإسلام والتصدي للأفكار الهدامة.

٥- إنشاء المدارس والجامعات الإسلامية التي تخرج العلماء المتخصصين في الشريعة والذين يقع على عاتقهم نشر الدين...

وقد حافظت هذه الأعمال الخيرية على نشر الدين، وإبقائه على سبيل الدوام، وتعدّ الأوقاف من الأعمال الخيرية التي حبست لبناء المساجد وإنشائها، ومن أهم العوامل التي حافظت على حفظ الدين ونشره،[١].

ب - دور العمل الخيري في حفظ النفس:

المقصود به: حفظ الأرواح من التلف أفراداً وعموماً؛ لأن العالم مركب من أفراد الإنسان، وفي كل نفس خصائصها التي بها بعض قوام العالم[٢].

يعدّ العمل الخيري من أهم الأدوات التي شرعها الإسلام للمشاركة في حفظ النفس، وقد ساهم العمل الخيري في حفظ النفس بما يلي:

١- توفير كفاية النفس بما تحتاجه من طعام وشراب ولباس ومسكن ووقاية من الأمراض التي تؤدي بالنفس كالحريق والغرق وغيرها من الوسائل التي لا يتم حفظ النفس إلا بها، والتي تأخذ حكم المقصد الضروري.

٢- تقديم نفقات العلاج ماديا أو من خلال إنشاء المستشفيات الخيرية وتخصيصها للمحتاجين.

٣- المساهمة في إغاثة المنكوبين والمتضررين من الكوارث.

٤- إقامة دور الرعاية الصحية والتي تعنى بحفظ حياة الأطفال الذين فقدوا ذويهم في الحرب أو الحوادث وغيرها، وكذلك رعاية اللقطاء الذين فقدوا نعمة الأب الشرعي.

جـ - دور العمل الخيري في حفظ العقل:

ميز الله الإنسان بالعقل وجعله مدار التكليف، ودليلاً تابعاً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولم يغفل الإسلام الاهتمام بالعقل وتنميته بالمحافظة عليه عما يضره في مادته وجوهره، وما يذهب بوظيفته جزئياً أو كلياً، وتنميته لاستخدامه فيما ينفع الإنسان في دينه ودنياه.

---

(١) انظر الوقف والمجتمع، يحيى محمود الساعاتي، الرياض، مؤسسة اليمامة، ١٤١٧هـ، ص/١٩.

(٢) أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية ص/ ٢٢٥.

قال ابن عاشور: " إن معنى حفظ العقل حفظ عقول الناس من أن يدخل عليها خلل؛ لأن دخول الخلل على العقل مؤد إلى فساد عظيم من عدم انضباط التصرف "[١].

وللعمل الخيري إسهامات واضحة في حفظ العقل بوسائل منها:

١- إنشاء المكتبات ودور العلم، باعتبار أن الكتاب هو الأساس في بناء الشخصية العلمية وتربية الأجيال الناشئة.

٢- بناء المدارس والمعاهد ومراكز الدعوة والإرشاء، والإنفاق على مستلزماتها والقائمين عليها من أساتذة ومدرسين. وقد حمى العمل الخيري العقل من الجهل والخمول والتقليد، عن طريق بناء المدارس والمعاهد العلمية والجامعات، حيث كان لها الأثر في حفظ العقل من الجهل بتعليم الإنسان كل ما يلزمه ويلزم أمته من فقه وحديث ولغة ونحو وطب وإدارة، وشمل التعليم الرجال والنساء والأطفال، وكثير من العلماء والفقهاء الذين خدموا الدّين تلقوا تعليمهم وثقافتهم من خلال هذه المدارس والمكتبات.

د - دور العمل الخيري في حفظ النسل:

بسهم العمل الخيري في الحفاظ على النسل الذي هو أساس استمرار الحياة وبقاء النوع الإنساني. فالنسل مهم في الحياة، وحفظه من الركائز الأساسية لعمارة الأرض، وهو عنصر مهم للجهاد الذي يحفظ الدين والنفس، وكلها من الضروريات الخمس. والإسلام حث على التناسل وعني بحمايته بوسائل عدة، منها: تخصيص الأموال للمقبلين على الزواج ومساعدتهم وإقامة حفلات الزواج الجماعي للحفاظ على النسل واستمراره، ووجد كذلك الوقف على أصحاب العوائل ممن كثر عياله وقل رزقه [٢].

هـ - دور العمل الخيري في حفظ المال:

ينظر الإسلام إلى المال على أنه وسيلة لتحقيق مقاصد شرعية ودنيوية وأخروية، فردية واجتماعية، فلا يستطيع المرء أن يحافظ على حياته المادية إلا بالمال، فبه يأكل وبه يشرب، وبه يلبس، وبه يبني مسكنه، وبه يصنع سلاحه الذي يدافع به عن نفسه وحرماته، وبه يطور نفسه ويرقيها [٣].

---

(١) مقاصد الشريعة ص/ ٨٠.

(٢) انظر: الوقف في العالم الإسلامي، راندي ديفيلم اندريه ريمون، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٩٥م، ص/٢٦.

(٣) مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال ص/ ١٠.

ينطلق التصور الإسلامي للمال من أن المال لله عزّ وجل وأن الإنسان مستخلف فيه [١].
والعمل الخيري بجميع أنواعه لا يتم إلا بالأموال سواء كانت ثابتة أو منقولة.
ويسهم العمل الخيري في حفظ المال بالمحافظة عليه من الإتلاف[٢] وإخراج حقه بالزكاة والصدقة، ومنع استخدامه فيما يضر، وتنميته بالطرق الشرعية.

دور العمل الخيري في حفظ المقاصد الحاجية:

تتناول المقاصد الحاجية حفظ الكليات الخمس ذاتها أي الدين والنفس والعقل والنسل والمال، لكن بمرتبة أقل من الضرورية، فتحفظ المقاصد الحاجية هذه الخمس بما يجلب التيسير والرفق للمكلفين والتوسعة ورفع الضيق المؤدي إلى الحرج والمشقة، وبما أن ظروف الحياة المتجددة والمتغيرة تنشأ دائماً عن حاجات لا حصر لها، فتتنوع صور العمل الخيري بتنوع هذه الحاجات التي يطلب تلبيتها، حيث إن هذه الحاجات لا غنى للإنسان عنها، وبوجودها يرفع الحرج والمشقة عن الأفراد والأمة، وتجلب التيسير والرفق [٣].

ويسهم العمل الخيري في حفظ المصالح الحاجية من خلال:

١- إنشاء مراكز رعاية المعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة وتزويدها بالجهزة والمستلزمات الطبية والكوادر البشرية.
٢- إنشاء دور المسنين للذين فقدوا من يعولهم.
٣- تمليك المساكن للمحتاجين، أو توفير سكن لائق لهم، أو ترميم وإصلاح مساكنهم القديمة وتزويدها بالمرافق الصحية.
٤- إنشاء المكتبات العامة وتقديم خدمة قراءة الكتب أو استعارتها مجاناً.
٥- دعم إقامة الندوات والمحاضرات والمسابقات الدينية والثقافية الهادفة.
٦- طباعة الكتب والنشرات للتوعية بالمناسبات الدينية.
٧- رعاية المرافق والخدمات العامة خاصة في الأماكن البعيدة.

دور العمل الخيري في حفظ المقاصد التحسينية:

المصالح التحسينية من التحسين والتزيين والتكميل، وهي الأخذ بمحاسن العادات والأخلاق، وترك ما تستقذره النفس وتعافه الطباع، ووجودها حسن؛ لأن النفوس تتطلع دائماً إلى زيادة حسن وجمال متع الحياة. وهي تتناول حفظ الكليات الخمس الدين والنفس والعقل والنسل

---

(١) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف العالم، الرياض، الدار الإسلامية للكتاب الإسلامي، ١٩٩٣م، ط٢، ص/٤٨٦.
(٢) مقاصد الشريعة لابن عاشور ص/ ٨٠.
(٣) ينظر الفكر المقاصدي، للدكتور أحمد الريسوني، ص/ ١٤٦.

والمال بجلب معاني التزيين والجمال لها، أي إنها تدخل في تحسين الكليات الخمس، فهي لا ترقى إلى مستوى الضروريات أو الحاجيات وإنما هي تتممها وتحسنها.

ويسهم العمل الخيري في حفظ التحسينات من خلال:

١- الإنفاق على بناء المقابر وكل مستلزمات الموتى.

٢- التطوع في حملات النظافة للحياء الفقيرة والحدائق العامة.

٣- المساهمة في تزيين المساجد والشوارع والطرقات.

٤- المساهم في توعية السجناء وإصلاحهم وتعليمهم النافع من الأعمال.

٥- مساعدة من يعجز عن اداء فريضة الحج.

هذا ويجب الموازنة بين المقاصد الثلاثة عند التزاحم؛ لأن إسهام العمل الخيري في حفظ المقاصد الثلاثة ليس على وتيرة واحدة، فقد يكن ضروريا وقد يكون حاجيا أو تحسينيا، فيقدم عند التزاحم ما يدل العقل على أن في تحصيله صلاحا عظيما أو في حصول ضده ضررا عظيماً.

يظهر من العرض السابق أهم المقاصد الشرعية التي يحقّقها العمل الخيري:

١- يحقق العمل الخيري مقصود الشارع الإجمالي، وحيث إن المصلحة هي المحافظة على مقصود الشرع من الخلق جميعه، وهو أن يحفظ عليهم دينهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يضمن حفظ هذه الأصول الخمسة، فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة. فالعمل الخيري في ذاته مصلحه، والمصلحة ركن من أركان مقاصد الشريعة، حيث تعد المصلحة لب المقاصد وغرضها الأساسي.

٢- يحقق العمل الخيري مقصد التعاون على البر والتقوى لقوله تعالى: (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى) [١]، فالتعاون والتضامن والتكافل إحدى خصائل العمل الخيري.

٣- يحقق العمل الخيري مقصداً عظيماً في حقوق الأخوة والصحبة، ففيه تقضى الحاجات [٢]، ويتم القيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة، وما

---

(١) المائد: ٢.

(٢) مشروعية الوقف وطبيعته وأنواعه، عز الدين الخطيب، عمان، مجلة هدي الإسلام، عدد /٩، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص/١٤.

ذلك إلا لأن العمل الخيري لا يقصد إلا رضا الله تعالى والتقرب إليه، فهو أحد الطاعات المشروعة لإصلاح القلوب والأجساد والنفع للعباد [١].

٤- يمكن للعمل الخيري في الوقت الحالي أن يحقق مقصداً مهماً في تأمين حاجات الدولة، التعليمية والصحية والدفاعية ومشاريع البنية التحتية الأساسية سيقلل من الإنفاق العام للدولة ويؤمّن احتياجاتها واحتياجات الأفراد [٢].

المبحث الثالث: المقاصد الخاصة للعمل الخيري

المقاصد الخاصة: وهي المقاصد التي تتعلق بباب معين أو أبواب معينة من أبواب المعاملات، وللعمل الخيري مقاصد خاصة يحققها للفرد المسلم ولمجتمعه ومن تلك المقاصد:

١- تحقيق العبودية لله تعالى وتنفيذ أوامره في الأمر بعمل الخير، وهذا المقصد هو بمثابة المقصد الأعلى والجامع لكل ما يليه من المقاصد والغايات والأهداف، وهو مقصد يسعى إليه كل مسلم متعبد لربه ومطيع له وملتزم بتوجيه دينه وأحكامه، فالوقف والهبة ونحوهما مما يدخل في العمل الخيري، تعمل على تحقيق العبودية لله تعالى، فالعبودية لا تتحقق بتنفيذ العبادات البدنية فقط، بل إنما تتحقق أيضا عندما تكون حياة المسلم لله تعالى ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ [٣].

٢- تحقيق رسالة الإنسان العليا التي كلفه الله تعالى بها، وهي رسالة الاستخلاف في الأرض ﴿إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [٤]. وإذا نظرنا إلى الأعمال الخيرية العظيمة في عالمنا الإسلامي لوجدنا لها دورا عظيما في التعمير من خلال بناء الجوامع والمساجد والمدارس والجامعات والمستشفيات، وحفر الآبار، والمشروعات الخيرية المتنوعة من شق الطرق، وبناء الجسور، والقناطر،.....

٣- تحقيق التنمية الشاملة للإنسان والمجتمع والأمة من خلال الموارد المالية التي تنفق على المدارس، والجوامع، والمستشفيات، وكذلك على العلماء، وطلبة العلم،

---

(١) انظر، قواعد الأحكام في إصلاح الأنام، عز الدين بن عبد السلام، تحقيق نزيه حماد وعثمان ضميرية، دمشق، دار القلم، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٢٩٧/١.

(٢) السياسة المالية ودورها وضوابطها في الاقتصاد الإسلامي، منذر قحف، بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٩٩٩م، ط/١، ص/٦٣-٦٥.

(٣) الأنعام: ٦٢.

(٤) البقرة: ٣٠.

والفقراء والمساكين، والأرامل، والغارمين وغيرهم. فهذه الأعمال الخيرية تؤدي بلا شك إلى تنمية شاملة للأفراد والمجتمع والأمة.

والعمل الخيري ليس مقتصرا على جانب واحد من جوانب الحياة، ولكنه يشمل جميع الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، وكل ما يحتاجه الفرد والمجتمع، فلكل إنسان حاجة تختلف حاجة غيره، فعمل الخير يعتبر حجر الأساس للتنمية الشاملة للمجتمعات الإسلامية، ويعطي بعداً آخر في قدرة المجتمع المسلم على التخطيط المبكر لمتطلبات الحياة وظروفها المستقبلية المتقلبة.

وقد أثبتت التجربة أن العمل الخيري يشمل مختلف مجالات الحياة. فهو أحد مظاهر رعاية التشريع الإسلامي للمجتمع؛ والقيام به يربي المجتمع على حب الخير للجميع، والارتفاع عن النظرة المادية المغرقة، وتقديم الدعم لكل من له حاجة للدعم والاهتمام، وهو كذلك يحفظ تماسك المجتمع، ويحقق الأخوة، مما يضمن له السلم الاجتماعي، ولذا جاءت النصوص الشرعية حاثة عليه، آمرة به؛ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١]، وهي آية جامعة للعمل الخيري مع فرائض الدين اللازمة في سياق واحد.

فللعمل الخيري دور اجتماعي واقتصادي مهم في حياة الأمة الإسلامية، ونظراً لأن كل مجتمع، وكل فترة تمر بالمسلمين تحتاج إلى مورد مستمر يحقق منافع كثيرة في أشكال متعددة، وصور مختلفة بما يجعل المجتمع المسلم في حالة مستقرة في معيشته، وأموره المادية، وهذا الاستقرار يعود بالنفع على المسلمين من ناحية قدرتهم على الاستقلال عن التبعية لغيرهم، ويؤدي إلى تقوية مجتمعهم وتحصينه ضد الأمراض الاجتماعية التي تنتج من الفقر والعوز، وتحقيق الأمن الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع المسلم يعين الفرد المسلم على تفريغ قلبه من هموم العيش وتكاليف الحياة وهذا يعينه على تحقيق الغايات السامية في حياته، وهي عبادة الله تعالى، فهذا إبراهيم عليه السلام يطلب من ربه تعالى أن يحقق الأمن الاجتماعي والاقتصادي لأهل بلده حتى يتمكنوا من عبادته تعالى على أكمل وجه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ﴾ [٢].

وتحقيق هذا الهدف في حد ذاته مدعاة إلى اليقين بأهمية العمل الخيري في المجتمع المسلم، وضرورة التوعية بأهميته بين جميع أفراد المجتمع.

---

(١) الحج: ٧٧.

(٢) البقرة ١٢٦.

١- تأمين مورد مالي ثابت لمستقبل الأمة الإسلامية [١]، وهذا المقصد واضح فيما فعله عمر ﷺ عنه بالأراضي المفتوحة، حيث أوقفها حتى يكون للدولة الإسلامية مورد ثابت، ويكون للأمة في حاضرها ومستقبلها بأجيالها المتعاقبة دخل يعينها في نوائبها، ويحقق لها التقدم والازدهار. ولذلك قال عمر ﷺ:" لولا أن أترك آخر الناس ببّاناً ليس لهم من شيء ما فتحت عليّ قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله خيبر، ولكن أتركها خزانة لهم " [٢]. وليس هذا خاصاً بالوقف، بل جميع أنواع الأعمال الخيرية ساهمت في توفير موارد ثابتة للعلماء، أو المدرسين، أو الأطباء، أو المؤسسات، فكان لها دور عظيم في توفير متطلبات الحياة لهم على مر عصورها، وبخاصة عصورها الزاهرة.

٢- إعادة التوزيع أو توزيع الثروة وتداولها بين الفقراء والأغنياء، بل بين الأجيال. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في آيات سورة الحشر التي تتحدث عن الفيء، والتي اعتمد عليها سيدنا عمر في وقف الأراضي المفتوحة على الأمة كلها حيث جاء فيها بعد ما ذكر مصارف الفيء ﴿.... كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ [٣]، وهذا ما أشار إليه معاذ بن جبل ﷺ على عمر لما رأى إصرار بعض الصحابة على التقسيم بقوله: " والله إذاً ليكونن ما نكره، إنك إن قسمتها صار الريع العظيم في أيدي القوم يبيدونه فيصير ذلك إلى الرجل الواحد، أو المرأة الواحدة، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدُّون من الإسلام مسداً، فلا يجدون شيئاً، فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم " [٤]، وهذا ما فعله عمر ﷺ حيث وقف الأرض على المسلمين، وضرب عليها الخراج، وأصبح ينفق منه على مصالح المسلمين جميعاً [٥]. فالأوقاف المتنوعة وغيرها من الأعمال الخيرية لها دور عظيم في إعادة التوزيع، أو توزيع الثروة على أكبر قدر ممكن، حيث تخرج هذه الأموال من ذمم أصحابها القادرين إلى الآخرين من الفقراء والعلماء والمرضى وغيرهم.....

٣- تحقيق مبدأ التكافل الإسلامي، إن مفهوم التكافل في الإسلام يشتمل على معاني البر والإحسان والوقوف بجانب أهل الفقر والعوز، وأن يكون الأفراد في كفالة مجتمعهم، وأن يكون كل قادر كفيلا في مجتمعه يمده بالخير، ويدفع عنه الأضرار. أو أن يتضامن أبناء المجتمع ويتساندوا فيما بينهم، سواء أكانوا أفرادا أم جماعات، حكاما أم محكومين، لاتخاذ

---

(١) موسوعة الفقه الإسلامي الكويتية ٥٧/١٩.

(٢) الخراج لأبي يوسف ص/ ٢٤ و (ببياناً) أي معدماً لا شيء له.

(٣) سورة الحشر: الآية ٧.

(٤) الأموال لأبي عبيد ص / ٨٣. ٨٤.

(٥) الموسوعة الفقهية ٥٨/١٩.

مواقف إيجابية؛ كرعاية اليتيم، أو مواقف سلبية؛ كتحريم الاحتكار بدافع من شعور وجداني عميق، ينبع من أصل العقيدة الإسلامية؛ ليعيش الفرد في كفالة الجماعة، وتعيش الجماعة بمؤازرة الفرد؛ حيث يتعاون الجميع ويتضامنون لإيجاد المجتمع الأفضل، ودفع الضرر عن أفراده. وقد تضافرت الآيات والأحاديث على أن المؤمنين أمة واحدة، وأنهم إخوة وأن هذه الأخوة ليست مجرد شعار يُرفع، أو كلمة تقال، وإنما لا بد أن تكون لها حقيقتها وأثرها في الواقع، يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [١]، إن المتأمل في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المطهرة ليدرك من خلالها أنها تدعو لفعل الخير والوقوف بجانب أهل الفقر والعوز من المسلمين، وفي ذلك دلالة على التكافل الاجتماعي، ويقول الرسول ﷺ : " ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد يعني مسجد المدينة – شهرا "[٢]؛ وأيضا: "خير الناس أنفعهم للناس " وهذا فيه ما يكفي لفعل الخير وعلو مكانة فاعله، وفيه أيضا حث على ضرورة القيام بمعاونة الناس جميعا وأن يتخذ العون كل أشكاله، يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ؟ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [٣].

فجاء العمل الخيري ليحقق مبدأ التكافل والتعاون بين المسلمين، فحين يقوم الغني بعمل الخير لفقراء المسلمين فهذا يسهم في تخفيف معاناتهم، ويحس الفقير بانتمائه لهذا المجتمع الذي كفل له حق العيش بكرامة، ولذلك شبّه الرسول ﷺ المسلمين بالجسد الواحد فقال:" ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم، وتعاطفهم كمثل الجسد: إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى " [٤].

٤- تحرير رؤوس الأموال من كنوز مدخرة لدى أصحابها، معطلة عن دورها في تنمية المجتمع المسلم إلى أموال محررة ذات فاعلية كبرى في خدمة التنمية الشاملة للمجتمع المسلم.

٥- تحقيق مبدأ الإيثار في الأمة وتربيتها على ذلك، أن من يقومون بالعمل الخيري يقومون به لأنهم يؤثرون على أنفسهم على الرغم من حاجتهم إليها، فهذا أبو طلحة حينما وقف بستانه بيْرحاء كان أحب أمواله إليه، وكان محتاجاً إليه؛ لأنه كان يعيش فيه، ولكنه آثر

---

(١) المائدة:٢.

(٢)انظر: السلسلة الصحيحة، ٥٧٤/٢.

(٣) الأنبياء: ٧٣.

(٤) الحديث رواه البخاري، الحديث رقم (٥٦٨٨)، ومسلم، الحديث رقم (٢٥٨٦).

رضا الله تعالى ونيل الأجر العظيم في الآخرة، حيث ذكرت الروايات أنه بعدما وقفه عاد إلى أهله الذين كانوا يعيشون في البستان فأخرجهم منه. وكذلك كانت الأرض التي بني عليها مسجد رسول الله ﷺ لبني النجار الذين رفضوا بيعها وإنما جعلوها وقفاً على الرغم من حاجتهم [١]. وكذلك زيد بن حارثة ﷺ وقف فرسه التي كان يحبها ولم تكن لديه فرس أخرى حتى لابنه أسامة.

وأثر هذا المقصد يظهر في تحقيق القدوة، والتربية، والحث على الإيثار وتعويد الأمة على ذلك؛ لأن الأمة لا تتحقق لها قوتها وتماسكها وعزتها إلا إذا كانت مستعدة للإيثار.

٦- إغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، يقول الله تعالى: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾[٢]، وقال الله عز وجل: ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [٣]، وقال الله في وصف أهل الجنة: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا﴾ [٤].

ويقول الله تعالى: ﴿فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة. فكّ رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيمًا ذا مقربة. أو مسكينًا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة﴾[٥]، وقالت الصحابية الجليلة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد في وصف النبي ﷺ: (كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحقّ).

إن العمل الخيري الإسلامي يقوم من أساسه على مقصد الإحسان بمفهومه العام، فيشمل الإحسان إلى المسلم وغيره، وإلى الصغير والكبير، والذكر والأنثى، ومن وجوه الإحسان: إغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، وكَسْب المعدوم، وتفريج الكرب، وفك الأثير، وإطعام الجامع، ورعاية اليتيم، وإمداد المتضرر بالكوارث بالطعام والشراب والفراش والخيام واللباس وبالطب والهندسة والآلات. وذلك مقصد شرعي لكثير من الأعمال الخيرية، وهو يدل على الإحسان والرحمة التي يمتاز بها الإسلام، ويقصد إليها.

---

(١) صحيح البخاري: الحديث رقم (٣٩٣٢).

(٢) البقرة: ١٩٥.

(٣) التوبة: ١٢٠.

(٤) الإنسان: ٨، ٩.

(٥) البلد: ١١ – ١٨.

١- تحرير النفس من البخل، فحين يحث الشارع الحنيف المسلمين على عمل الخير، فهذا يدفعهم للتخلص جزئياً من حب المال، ويدفعهم للتخفف من البخل، حيث جبلت النفوس على حب المال، وادخاره.

٢- استمرار أجر فاعل الخير بعد موته، فكل إنسان له مدة محددة من العمر تنقضي بموته، ويتوقف عند ذلك عمله الذي ينال به مرضاة الله، وعمل الخير من أسباب استمرار أجره بعد موته، وقد يستمر هذا الأجر مدة من الزمن أطول من مدة عمره.

٣- الحرية: وهي من مقاصد العمل الخيري التي تعمل على تحرير النفس الإنسانية من القيود التي تعوق حركتها وتهدر طاقاتها، وجاءت الشريعة السمحة لتجعل الحرية جزءاً لا يتجزأ من عمل الخير والمساهمة فيه.

٤- محاربة الفقر: من مقاصد العمل الخيري الخاصة معالجة الفقر وهذه تصحبها علل أخرى كثيرة مثل الجهل والمرض والبطالة، وهي علل ذات آثار سلبية، تدمر قدرات المجتمع.

والعمل الخيري بمختلف صوره هو أحد الأشياء التي تستهدف القضاء على الفقر، وتسعى بشكل دائم لتجفيف منابعه، وإخراجِ من يدخل في دائرته، وإعادةِ إدماجه في دورة العمل والإنتاج؛ كي يصبح معتمِدا على ذاته، مساهما في بناء مجتمعه وفي مساعدة غيره، خاصة أن علة الفقر تصحبها علل أخرى كثيرة مثل الجهل والمرض والبطالة والجريمة. وهي علل ذات آثار سلبية، تدمر قدرات المجتمع، وتعوقه عن التطور والنمو.

ويسعى النظام الإسلامي عامة إلى اجتثاث الفقر من المجتمع بوسائل متعددة، وكلما نبتت بوادر جديدة للفقر أسرع إلى محاصرته وتجفيف منابعه.

إن أول مصرف للزكاة المفروضة هم "الفقراء والمساكين" بنص قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [1]. وإلى جانب الزكاة المفروضة حثت شريعة الإسلام على المبادرة بالأعمال الخيرية للإسهام في مواجهة مشكلة الفقر، ومن أهم صور هذه الأعمال الخيرية: الصدقة والوقف والهبة والانتفاع بفائض رؤوس الأموال والقرض الحسن.... ومن ذلك كله عرفنا أن محاربة الفقر مقصد أساسي من مقاصد العمل الخيري.

وللفقر صلة وثيقة بالقهر، وليس فقط بالجهل وبالمرض. ولهذا كان التصدي له في مقدمة أولويات العمل الخيري، وتجلى ذلك بأوضح ما يكون في نظام الوقف الإسلامي. وبفضل العمل الخيري انتشرت وسائل محاربة الفقر ومنها:

---

(١) التوبة: ٦٠.

١- المساعدات النقدية التي تقدم للفقراء في الأعياد والمناسبات الدينية، أو تقدم لهم في أوقات حاجتهم إليها.

٢- المساعدات العينية التي تشمل: الطعام والكساء والدواء والمأوى أحيانا، وهي تقدم للفقراء والمعوزين موسميا أيضا أو في أوقات حاجتهم إليها؛ شأن المساعدات النقدية.

٣- المساعدات المؤسسية؛ ونقصد بها تلك المساهمات التي يقوم بها فاعلو الخير من أجل دعم أو تمويل أو إنشاء مؤسسات تقدم خدمات عامة مثل: المساجد والمدارس والمستشفيات ومستوصفات العلاج ودُور الرعاية الاجتماعية التي تقدم خدماتها للأيتام والعجزة والأرامل وذوي الاحتياجات الخاصة.

٤- المساعدات الفنية، وتشمل ما يتطوع به فاعلو الخير من خبرات واستشارات ومشاركات يقدمونها بدون أجر مادي، ويسهمون بها في تدريب وتأهيل الراغبين في العمل من غير القادرين على تحمل نفقات التأهيل المهني اللازم لدخولهم سوق العمل. وجرى تمويل هذه المنظومة الخيرية عبر طرق متعددة منها: الزكاة والوقف والوصايا والهبات الخيرية والنذور، والكفارات، والصدقات التطوعية الأخرى.

الخاتمة

في ختام هذا البحث يمكن القول إن العمل الخيري هو النفع المادي أو المعنوي الذي يقدمه الإنسان لغيره دون مقابل، مثل أعمال البر وصنائع المعروف، ولا يقتصر هذا العمل على المساعدات المادية، وإنما يتعدى ذلك إلى البرامج الثقافية والدعوية لإقامة المصالح المعتبرة ابتغاء الأجر في الآخرة. وأن الخير مقصد عام وثابت من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، وله مقاصد أخرى تهدف كلها لمنفعة الإنسان في كل زمان ومكان، كما أنه يعمل على تحقيق مقاصد الشريعة الثلاث...

ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

١- العمل الخيري يشمل البذل المادي والمعنوي لإقامة المصالح الشرعية ابتغاء الأجر والثواب من الله.

٢- يعتبر العمل الخيري مقصدا من مقاصد الشريعة، وذلك بدلالة كثرة الأمر به والحض عليه ومدح فاعليه، والتحذيرِ من مناوئيه في كثير من آيات الكتاب العزيز، وأحاديث النبي الكريم ﷺ.

٣- يحقق العمل الخيري مقاصد الشريعة في حفظ الكليات الخمس وبحفظه لهذه الأصول فهو مصلحة مقصودة للشرع، مثل بناء المساجد ومراكز تحفيظ القرآن وطباعة المصاحف والكتب والمدارس والمستشفيات...

٤- يحقق العمل الخيري مقاصد الشريعة الحاجية إذ يوسع عن الأمة ويرفع الضيق، إنشاء مراكز رعاية المعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة، إنشاء دور المسنين للذين فقدوا من يعولهم وإنشاء المكتبات العامة....

٥- يحقق العمل الخيري مقاصد الشريعة التحسينية فيكمّل الحياة ويزيّنها ويحسّنها، الإنفاق على بناء المقابر وكل مستلزمات الموتى، التطوع في حملات النظافة للحياء الفقيرة والحدائق العامة، المساهمة في تزيين المساجد والشوارع والطرقات، المساهم في توعية السجناء وإصلاحهم وتعليمهم النافع من الأعمال ومساعدة من يعجز عن اداء فريضة الحج.

٦- العمل الخيري أحد الأسباب الرئيسة في المحافظة على الأموال وتنميتها، وزيادتها، ودوامها وبقاء أصلها، وحمايتها من أي عامل يسعى إلى إهلاكها أو إفسادها.

هذا والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١- أعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق طه عبد الرؤوف، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣م.

٢- تاج العروس، لحمد مرتضى الزبيدي، ط بنغازي، ليبيا.

٣- صحيح البخاري، للإمام البخاري.

٤- صحيح مسلم، للإمام مسلم.

٥- علم أصول الفقه، محمد زكريا البرديسي، القاهرة، دار الثقافة للنشر، ١٩٨٣م.

٦- قاموس المصطلحات الاقتصادية، لمحمد عمارة، دار الشروق، القاهرة.

٧- قواعد الأحكام في إصلاح الأنام، عز الدين بن عبد السلام، تحقيق نزيه حماد وعثمان ضميرية، دمشق، دار القلم، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٨- قواعد المقاصد عند الشاطبي عرضاً ودراسة وتحليلاً، عبد الرحمن الكيلاني، دمشق، دار الفكر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ط/١.

٩- مشروعية الوقف وطبيعته وأنواعه، عز الدين الخطيب، عمان، مجلة هدي الإسلام، عدد /٩، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م

١٠- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، تحقيق محمد سيد الكيلاني، مادة خير.

١١- مفهوم الوقف ومقاصده، د. عبد الوهاب أبو سليمان، ضمن بحوث ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية، الرياض ١٤٢١هـ

١٢- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر ابن عاشور، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٨م، ط/١.

١٣- مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، محمد سعد اليوبي، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ط/١.

١٤- المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف العالم، الرياض، الدار الإسلامية للكتاب الإسلامي، ١٩٩٣م، ط٢.

١٥- السياسة المالية ودورها وضوابطها في الاقتصاد الإسلامي، منذر قحف، بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٩٩٩م، ط/١.

١٦- الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحق الشاطبي، وعليه شرح الشيخ عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت.

١٧- موسوعة الفقه الإسلامي الكويتية.
١٨- نظرية المقاصد عند الشاطبي، لأحمد الريسوني ط. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
١٩- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ط عيسى البابي الحلبي.
٢٠- الوقف الإسلامي تطوره وإدارته وتنميته، منذر قحف، بيروت، دار الفكر المعاصر، ودمشق، دار الفكر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ط/١.
٢١- الوقف في الشريعة والقانون، زهدي يكن، بيروت، دار النهضة العربية، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
٢٢- علم أصول الفقه، انظر عبد الوهاب خلاف، الكويت، دار القلم، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ط/١٢.
٢٣- الشاطبي ومقاصد الشريعة، حمادي العبيدي، دمشق، دار قتيبة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ط١.
٢٤- حجة الله البالغة، للدهلوي، ط بيروت، ودار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ط٣/.
٢٥- تاريخ العرب، فيليب حتي، وآخرون، بيروت، دار غندور، ١٩٧٤م، ط/٥.